الحس الاغترابي في رواية "نزهة الخاطر" لأمين الزاوي

Expatriate sense in the novel "Nuzhat Al-Khater" by Amin Al-Zawi

سامية آجقو[1]

[1] جامعة بسكرة – الجزائر mohamedbounekhel@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2019/10/27 تاريخ القبول: 2019/11/01 تاريخ النشر: 2019/12/25

ملخص:

يتغيا هذا المقال مساءلة المتن السردي نزهة الخاطر، والوقوف على تجلياته الاغترابية المتسرِّبة في ثنايا العناصر السردية، وتمظهره في الشخصيات على اعتبار أنها سبب ونتيجة الاغتراب بأنماطه ولبوسه الاجتماعي، الديني، النفسي والوجودي، وهو ما يجعل الرواية قائمة على منحى التلازم بين الأنا والآخر، فضلا عن المكان الذي يحرض في بعض الأحيان حسب الموقف على الاغتراب والتلصُّص على عوالم الشهوة بأنواعها بديلا عن الوحدة والعزلة والألم التي يفرزها المكان، وهو ما يحول الرؤيا السردية إلى الاغتراب كأسلوب حداثي يتسع لهموم الإنسان.

كلمات مفتاحية: درويش. الأغنية. السلطان. جماليات. التشكيل .سيميائي

Abstract:

This article tries to question the narrative of the narrative text of Nuzhat al-Khater, and to find out about his expatriate manifestations that are leaked into the narrative elements, and his appearance in the characters as the cause and consequence of alienation with his social, religious, psychological and existential patterns. The place that sometimes incites, according to the situation to alienation and eavesdropping on the worlds of lust as a substitute for the unity, isolation and pain produced by the place, which converts the narrative vision to alienation as a modern way to accommodate human concerns.

Keywords:alienation.; psychological; alienation; social alienation; religious alienation

المؤلف المرسل: سامية آجقو، **الإيميل**:mohamedbounekhel@gmail.com

1. مقدمة:

الاغتراب ظاهرة وجدانية ارتبطت بكينونة الإنسان، وزحفت إلى دواخله منذ الأزل؛ عندما وجد هذا الإنسان عاريا من كل الخبرات التي تؤهله لفهم نفسه ومحيطه، ومن ثمة نسج شبكة من العلاقات التي تحصن ذاته وتذيب عنه جليد الاغتراب، فبداية اغترابه كان في الطبيعة التي أزال حُجُبها العلم بتجاربه، وفي الدين بالرسائل السماوية التي امتصت اضطرابه وقلقه الوجودي، ليبقى الاغتراب فلسفة ذاتية تفرضها معطيات سياسية واجتماعية ونفسية ودينية وفكرية، والمسلم به أن فكرة الاغتراب ولدت في رحم الفلسفة اليونانية وارتبطت بوتد جمهورية أفلاطون التي تعد في حد ذاتها تجسيدا ماديا لفكرة الاغتراب الإنساني، ففكره يعد في ذاته وبذاتها «أول اغتراب واع عندما قسم العالم إلى مطلق ووجود، والمطلق هو عالم المثل، والوجود هو عالم الظلال والصور المشوشة، ثم كاتب جمهوريته تجسيدا لهذه الفكرة الاغترابية »(الألوسي، 2003، صفحة 12)، التي تأخذ بعدها المفهومي من المجرد، وعلى أرض الواقع يتأصل الاغتراب ويتأسس معناه من « تصدع الذات، ذات الفرد وانشقاقها نتيجة عدم تواؤمها مع المجتمع والعالم المحيط بها »(الزعيم، 1981، صفحة 67)

ولما كان الأدب والرواية على وجه الخصوص مرآة عاكسة لحياة الإنسان وقطعة نابضة منه، فقد غدا الاغتراب ظاهرة فنية استفحلت على المتون الأدبية، وعكست كل الزوايا المظلمة في حياة الإنسان، فالاغتراب في أبسط مفهومه هو «الانسلاخ عن المجتمع والعزلة أو الانعزال والعجز عن التلاؤم والإخفاق في التكيف مع الأوضاع السائدة في المجتمع أو اللامبالاة وعدم الشعور بالانتماء أو عدم الشعور بأهمية الحياة في عمومها بما في ذلك الشعور بالإحباط وغيرها»(النوري، 1979، صفحة 15)

وسنحاول إقامة الدليل على ظاهرة الاغتراب من خلال رواية "نزهة الخاطر"، ومحاولة استشعار الحس الاغترابي الذي خيّم على شخصياتها بحثا عن الذات والآخر في ظل هذا التأزم الهويّ، ويبقى الارتحال في تمظهرات الاغتراب في هذا النص الروائي ومحاولة القبض على مكامنه ديدن الإشكال.

فحين نقرأ نص نزهة الخاطر، تضيع نكهة النزهة وتتصلّب الخواطر، فنشعر بتلك المسحة الاغترابية التي تجوس في خبايا شخصيات الرواية.

2. الاغتراب الوجودي:

ويقف هذا النمط كشعرة معاوية بين فلسفة الموت والحياة، المصالحة مع الذات والآخر أو الانفصال عنهما، فالاغتراب مع الذات هو نتيجة حتمية للاغتراب الوجودي الذي يضرب « جذوره في الوضع الإنساني، فالإنسان متناه و فان، وتحكمه عناصر الوراثة والبيئة وتركيبه العضوي وتاريخ حياته ومصادفات مكان وزمان ولادته والعوامل الاجتماعية والتاريخية»(فينسكوف، صفحة 18) وأقرب ما يمكن قوله عن النص سيطرة الموت كعلامة دالة فيه وعليه، سيطرة شبه مطلقة فرضت نفسها استهلاليا في الرواية وفي دال الموت يرى سالم بيطار أن الإنسان«ينبثق من العدم، الإنسان كائن ملقى في العالم ولا شيء أكيد في مصيره سوى الموت»(بيطار، 2003، صفحة 79) فحياة البطل "أنزار" تعيش في شخصية الآخر الميّت وهي مفارقة عجيبة تكسر أفق توقع القارئ ففي هذا الجمع المتناقض بين الموت والحياة تستقيم معادلة المساواة بينهما "فأنزار" جسد بروح ميتة ومنهزمة «عرفت فيما بعد، حين وصلت مرحلة اجتياز الشهادة الابتدائية، بأنني كنت مسجلا، ومن يومي الأول، باسم ابن عم لي كان يحمل نفس الاسم "أنزار"، وهو أكبر مني بسنتين، وقد توفي عن عمر السنتين، بعد مرض مفاجئ لم يطل به سوى ثلاثة أيام، ولم يتم شطب اسمه من قائمة أحياء الحالة المدنية في البلدية، فقد نسيّ عمي القيام بذلك (...) فأنا هو أنا كنت ابن أبي أو ابن عمي في الأوراق الثبوتية، الأمر سيان. (...) هكذا بدأت مغامرتي مع المدرسة باسم غير اسمي، دخلت المدرسة باسم ميّت وبنسبة إلى عمي، ولازلت أحتفظ بذلك حتى اليوم»(الزاوي، 2013، الصفحات 32-33)

تبعا لذلك نشتَّم رائحة الموت التي تسربت من تحته لتدخل ركام حياته فحتى عمله كان مع الأموات (تغسيلهم وتكفينهم) عاش في ثوب ميّت في بلده الأم، ويعيش مع الأموات في بلاد الغربة (فرنسا)، هذا الاغتراب مع الذات والآخر (المجتمع) عقد مصالحة صامتة مع الآخر (الموت)، الذي تعددت قصصه ورائحته وآلامه، فلكل جثة هيأتها وحكايتها وعطرها، «أنا لا أسأل عن سبب موت الذين أُغسّلهم، ولا أقرأ الملفات المرافقة، ولا يهمني ذلك، لكني ومع مرور الوقت وتعمق خبرة العين، بدأت أعرف السبب من خلال النظرة الأولى إلى الجثة: موت بالسرطان أو بالسم أو بحادث طريق أو اعتداء إجرامي أو انتحار أو شيخوخة...»(الزاوي، 2013، صفحة 159) وهي صور متعددة للاغتراب الوجودي الذي« يسببه كذلك الانفصال

بين الواقع و الممكن في الوجود الإنساني (...) إن الإنسان متناه وفان وعرضة للشيخوخة، ومحدود في الزمان والمكان وبإمكانه أن يحقق القليل فحسب من إمكاناته»(فينسكوف، صفحة 19)

فكل جثة تحمل سبب موتها وقصة نهايتها، إن سرد الموت على طول صفحات الرواية هو إثبات لحقيقة الذات وكينونتها، كينونة الموت اللصيقة بها كظلها، وهو ملمح آخر للاغتراب الوجودي الذي نراه في وجوه شخصيات الرواية التي اختار لها الروائي خلاص الموت، وهذا المنطق السردي فرض تمددا داخليا للتساؤل حول هذه النهايات الحتمية للشخصيات هل هو خلاص لها أم تخلّص منها؟ أم هو تخصيب لمناخ الموت، مادام يشكل تيمة رئيسة في النص الروائي، وكأن الأحداث لا تفعل غير أن تلد وجهها، وتستمر الحكاية في تناسل حكائي مع الموت بداية بموت الجد عبد المؤمن بن علي الكومي الندرومي، والجدّة البتول التي ماتت حزنا وكمداً على موت الديك ميمون، الذي أخذ نصيبا من التقديس والأسطرة في رمزية للمخيال الشعبي الذي ينبت في أرضية الجهل «لا أحد كان يمكنه أن يتصور البيت الكبير خاليا من ميمون الديك؛ فهو الكائن الجامع بين أفئدة الناس، وهو القادر على رفع كل خصومة أو كراهية قد تنشب بين أهل البيت، وما أكثرها، فما أن يدخل غرفة إلا وتسرع صاحبتها إلى إخراج خبرة مطلوع، تقسمها قطعا صغيرة في طبق من الحلفاء، ثم توزعها على ساكنة البيت الكبير (...) كان ميمون وسيط سلام بين أهل البيت الكبير، وعامل مصالحة بين المتخاصمين»(فينسكوف، صفحة 17)

ويزداد اِرتباط الموت بمسار السرد سلطة دلالية تأخذ وجها آخر وهو الانتحار الذي اِختارته العمّة فاطنة سيفا يقطع أوردة الحياة «أسرَعوا في اتجاه المكان الذي منه صعد صوت أختي هاجر، وجدوها مغميًّا عليها أمام العمّة فاطنة، وهي معلقة من عنقها بذات المنديل الذي فيه ظلّت ساقها معلقة مدّة ستة أشهر»(فينسكوف، صفحة 103). ويأتي الموت معادلا موضوعيا يبحث عن حكاية للملامح الداخلية للشخصية، أين يختلط الواقع بالحلم أو الكابوس، "فأنزار" في رحلته المهنية مع الأموات وهو يتعامل معهم كأرقام ترفع رصيده المادي؛ فالموت هنا مؤشر دال عن الحياة وأسبابها ، ولكن الموت قد ينتج الموت بأنواعه، وهو ما حدث بكل التفاصيل المركزية والهامشية؛ لأنزار الذي يقف وجها لوجه أمام جثّة أخيه "مازار" في لحظة عالقة بأسياج العمر المفجوع «هربت من الصوت، هو صوت أخي يزلزلني، ويذكرني فجأة بموت جدتي

التي دخلت كفنها وماتت وهي تشرب القهوة (...) ما في ذلك شك، رميت فوطة على وسط جسده كي أستر عريه، لقد نحف قليلا وزاد طوله بعض الشيء، لكنّه لم يفقد لون عينيه اللوزيتين وضوءهما»(فينسكوف، صفحة 191)

وهنا تنفتح بوارج الاغترابات النفسية، ليبقى الثابت لا المتحول أن الاغتراب الوجودي هو الرحم الذي ينتج ويسبب في الآن ذاته كل أنواع الاغترابات التي تعصف بكينونة الإنسان.

3. الاغتراب الاجتماعي:

تعيش الشخصيات وتتفاعل مع واقعها الاجتماعي الذي يرسمه المؤلف عن طريق التماثل أو الاختلاف في إقامة جسور العلاقات بين الداخل والخارج، وما يحكمه من منطق سردي يتكئ على أعراف وضوابط أخلاقية، قد تحترمه أو تخترقه، في ظل الطابوهات التي تفرض نفسها واقعا افتراضيا في العمل السردي، وهو في الآن ذاته يخلق علاقة الاختلاف أو الائتلاف، وهي معادلة يصعب الفصل فيها، كونها تكرّس تجربة لها أسبابها ونتائجها، ويأتي الاغتراب الاجتماعي ما دون ذلك، «فالغريب هنا هو من يجتنب المجتمع وما يشيع فيه من معتقدات، وينفصل عن العامة والناس باعتبار أنهم من عوامل ضياع ذاته الأصلية»(رجب، 1993، صفحة 44)، ويتصل السرد بذلك الكبت النائم في حنايا المرأة، وتكون بذلك "هاجر" هي أولى ضحايا الأعراف البالية لمجتمع مارس سلطته الأبوية بقسوة جائرة، أجهضت حلمها في الزواج لا لشيء إلا لمرض أكل ساقها فشوّه جماله وحرمه من زينة الخلخال «لقد أصيبت أختي هاجر منذ طفولتها المبكرة، كان عمرها آنذاك لم يتجاوز السابعة بمرض خبيث يسميه أهل القرية بـ "مرض الخنزير" من أين جاء الأهالي بهذا الاسم؟ لا أحد يدري (...) يتعفن لحم المصاب ويتفسّخ (...) قد يبرأ بالكيّ، وحين يكوى الموضع المصاب في الجسد بواسطة نَصْل حادة، يسخن حتى يَحْمَرَّ ثم يتم شفط الجزء المقيح منه، يترك هذا الحرق بعد شفاء المرض آثار تشوه بادية على الجلد والعظم»(الزاوي، 2013، صفحة 34)، هذا التشوّه الجسدي زحف إلى روحها فقتل آمالها وزرع فيها تمرداً على الدين والأخلاق لتجد في حضن الرذيلة ملاذا لها، وهذا ما تترجمه علاقتها المشبوهة بعمِّها سليمان الذي يبادلها الشعور ذاته. فإنفصالها واغترابها الاجتماعي ولَّد بديلا ذاتيا لها يمحو خوفها ويمتص قلقها، وهو هاجسها المشترك مع العمّة فاطنة التي وجدت في تعدد الأزواج

بل والجمع بينهم هوية اجتماعية لها في مخالفة صريحة لقوانين العائلة الكبيرة وامتهان الرقص والغناء في الأعراس.

وهي مشاهد سردية تضيء احباطات الماضي والحاضر، والمستقبل يفضحها تفجير للمكبوت والمسكوت عنه ويطلع السارد بوصفه ذاتا ناطقة من خلال استحضار الذاكرة مرتكزة على نبرة الاستبطان الذاتي الداخلي، وهي تجتر واقعا موبوءا ولَّد اغترابا اجتماعيا عقد عزمه فيه على العيش بين صفحات الكتب وأصوات المبدعين على اختلاف منابرهم الفكرية والإيديولوجية، وهو حال البطل "أنزار" الذي اغترب عن الآخر ليجالس الكتب في وحدته وعزلته، فهو أشبه ما يكون بفأر المكتبة، فحياته اِختزلها الكاتب في تصفح الكتب ثم في تغسيل الأموات لمؤسسة تابعة لفرنسا وفي هذا رمزية تقرأ في كفِّ هذا الواقع الهجرة وحال المثقف العربي الذي لا يجد غايته في وطنه، فيضطر إلى الغربة ومنها إلى الاغتراب، وكلها عوامل ساقتها الظروف الاجتماعية القاهرة "فمازار" هاجر ليرعى الخنازير في مدينة رانفيل Ranville و"أنزار" الذي هجر الكتب وبدأ بالجري وراء الخبزة من جثث الموتى في بلد لائكي، هي المفارقة بعينها التي تجعل من الاغتراب الاجتماعي يأتي «نتاجا لاكراهات شتى تتمثل في القمع التاريخي والسياسي والأخلاقي والتربوي والاقتصادي، والاغتراب ليس نتيجةً وحسب، بل هو نتيجة وسبب في آن واحد، ذلك لأن ممارسة القمع والإرهاب ظاهرة اغترابية في حدِّ ذاتها، وعلى هذه الصورة يكمن الاغتراب في أصل العنف، ويكمن العنف في أصل الاغتراب، وتتداخل الظاهرتان في كينونة واحدة يتعانق فيها السبب بالنتيجة، والشكل بالمضمون».(وطفة، 1998، صفحة 242)

وهو ما يؤكد حضور الاغتراب ممارسة ونتيجة أذبل الشخصيات الروائية اجتماعيا وقزّمها في عين نفسها، وكأنما يَسحب منها أنف العزّة والكرامة فيقول "مازار" في حواره مع نفسه «عيب يأخي، يا ابن أمي يا مازار أن تشتغل مثل هذا العمل، ماذا سيقول عنّا أهلنا هناك؟ نغترب ونهاجر من بلادنا ونمتحن وفي النهاية نجد أنفسنا في حضيرة الخنازير أو في مغسلة الأموات؟ ماذا ستقول عني هاجر التي تحبني وترى فيّ صورة بديلة عن ديغول وفولتير؟ وماذا سيقول أبي الذي لا يرفع عينيه عن كتاب الله وكتب سيرة النبي عليه السلام؟ جميعهم سيقولون عنا إنَّنا نأكل من مال حرام»(الزاوي، 2013، صفحة 225)، وما يمكن أن يقال

على هذه الرواية، أنها تحتكم إلى جغرافية اجتماعية مهتزّة الأركان دينيا وأخلاقيا، وهو ما نسج علاقات اجتماعية غريبة كانت نتيجة وسببا لمظاهر الاغتراب داخل الأسرة والمجتمع، «فالاغتراب يقع داخل الشخصية الفردية، وذلك على الرغم من أن عوامل اجتماعية يمكن أن تسببه»(فينسكوف، صفحة 23)، وهو ما ينتج عنه «نتائج سلوكية فعلية منها: الانسحاب من المجتمع، أو الرضوخ له ظاهريا، والنفور منه ضمنيا، أو التمرد والثورة عليه»(سحبان، 1974، صفحة 45)، وهو السياق الذي فرض ولاء الطاعة على شخصيات الرواية.

4. الاغتراب الديني والنفسي:

إذا وقفنا عند حدود هذا النص السردي وقاربناه من الداخل وفق رؤية دينية ونفسية، وجدنا الأول سببا في الثاني والثاني نتيجة عن الأول هذه الرؤية الملتصقة قابلة للانعكاس في وجوه مختلفة، ذلك أن الإخلال بالجانب الديني يوَلِّد حتما اغترابا فحواه «الانفصال والانقطاع عن حياة الله أو السقوط من النعمة الإلهية في الخطيئة والذنوب»(رجب، 1993، صفحة 24)، وبموجبه يتدفق وابل من الهواجس والقلق والتوتر المصطبغة بصيغ الاغتراب النفسي التي تأخذ ملامح الشخصيات في النص الروائي، بداية بالطالب الجامعي "مختار" الذي تلبّس قميص الدين وقصّر وِالتحى ثم انتحى فَهْماً خاطئا للدين فكان مثالا حيًّا للعنف الديني الذي في أصل كينونته اِغتراب به وعنه، ليحصد شذوذاً أخلاقيا في ممارسة الفحشاء على بني جنسه وفي هذا يقول السارد «وإذا بي أسمع القَيِّمَ على المكتبة السيد ألفريد برانغير، يتحدث إلى أحد الأساتذة عن توقيف الطالب مختار من قبل الشرطة القضائية والأخلاقية بوهران»(الزاوي، 2013، صفحة 114)، وغير بعيد عن هذا المناخ النفسي الذي تفشت فيه الرَّذيلة في مكان الفضيلة (الثانوية) أين كان "أنزار" بطل الرواية المحب لمربى المشمش لازمة مفصلية في السرد اِرتبطت بزمن المتعة والألم، فكان تكرارها اِقحاما خارج دائرة المعنى، وهنا اِرتبط مربى المشمش بمنظّفة مبيت التلاميذ كل صباح، وارتبط بالفحشاء مع امرأة في سنِّ أمه، وفي هذا يقول الراوي «وكنت كلما اشتقت إلى فعل ذلك الذي فعلناه، أفتعل المرض فأبقى في سريري، وأراقب ساعة منظّفة مبيتنا. ولازلت أحب مربى المشمش وأحب (...) النساء الأكبر مني سنًّا»(الزاوي، 2013، صفحة 66).

تتداعى الفكرة ويتردد صداها مع البطلة "شاهي" الفتاة الدرزية التي تحكي عن دينها الذي أُعجب به البطل "أنزار" فهو جمع بين شعائر الإسلام وبقايا فكرية من الفلسفة الشرقية وتفصِّل قائلة «ديننا يا أنزار يعتمد على سبع وصايا هي:

1. صدق اللسان.
2. حفظ الإخوان.
3. ترك عبادة العدم والبهتان.
4. البراءة من الأبالسة والطغيان.
5. التوحيد لمولانا في كل عصر وزمان.
6. الرضى بفعل مولانا كيف ما كان.
7. التسليم لأمر مولانا في السر والحدثان»(الزاوي، 2013، صفحة 152).

هذا الخواء الديني أنجب سقما وهوسا وشذوذا في علاقة تجمع بين "شاهي" وصديقتها "صافو" «انسحبت شاهي من غرفتي فور وصول صديقة لها. تعانقتا، قبّلت الواحدة الأخرى على الفم، ثم تسلّلتا إلى داخل الغرفة المجاورة التي كانت تقابل غرفتي»(الزاوي، 2013، صفحة 152).

وفي هذا المزج بين المحكي الواقعي واللامقبول منه تتضاءل المسافة الاغترابية بين المعتقد الديني والفعل النفسي فيصبحان كينونة واحدة تعمِّق الهوَّة في الذات التي تكتفي بنوعها (الجنس نفسه) بديلا يتغيا الاكتمال وهذا بعينه اغتراب ذاتي إذ إن «إقامة علاقات إيجابية مع الطرف الآخر الأنثوي / الذكري من الوسائل التي تكفل للإنسان التغلب على عزلته، والخروج من حالته الاغترابية، فالحب بهذا الفهم وبتلك السمات يعد منهجا تعويضيا يعتمده المغترب للخروج من العزلة، ولكن إخفاقه في الحب سيقوده إلى اغتراب عاطفي أكثر عمقا يضاف إلى اغترابه الاجتماعي»(راضي، 1999، صفحة 14)، ويبقى الاغتراب الوجداني (العاطفي) هو المنتج الأول للوحدة والاضطرابات النفسية، وهو المسؤول عن استهلاك أنواع المسْكرات والمهلوسات وهو لسان حال البطل "أنزار" الذي وجد نفسه في مصحة للأمراض النفسية والعصبية وفي هذا يقول أخوه "مازار" «حين دخلت عليه، وجدته وحيدا بساحة المصحّة، يرتدي بذلة زرقاء مخططة

ونعلا مطاطيا. كان أنزار يلعب ببطة بلاستيكية يرميها في حوض ماء تتحرك البطة ثم يضحك ويضحك، يعانقها ثم يقبلها ثم يعيد إلقاءها في الماء. لم أُكلِّمْه، ولم يكلمنِ، نظر فيَّ نظرة غريب لغريب ثم واصل لعبه بالبطة، وواصل ضحكه»(الزاوي، 2013، صفحة 199).

ويتواصل السرد ليقف عند حد هذه النهاية التي تتعدى إلى الرمزية وهو ما يجعلها تمارس تأثيرها في تعميق الاغتراب النفسي كنتيجة حتمية فرضتها أنماط أخرى من الاغتراب، فهو «الذي ينشأ عن التناقض بين داخل الإنسان والعالم الخارجي. كما قد يتعلق بما يحدث للفرد من اضطرابات نفسية وعقلية، وما يستشعره من غربة وفتور وجفاء في علاقته بالآخرين، كما قد يعني مجرد السرحان والشرود الذهني الناتج عن اهتمام الإنسان بأمور معينة، تبعده عن ذاته، ويتيه بها عن نفسه، وعن الآخرين، كما قد يعني فقدان الحسّ وغياب الوعي»(رجب، 1993، الصفحات 35-36)، وهنا تقع أزمة البحث عن الذات ويعد الانفصال عنها وانفصامها مظهرا من مظاهر الانتقام والخروج عن معطف العادات والتقاليد ونواميس الطبيعة البشرية.

5. الاغتراب المكاني:

إنّ الروائي يسعى إلى التأكيد على رؤيته من خلال هندسة المكان المتخيّل وهو ما تفرزه اللغة على النحو الذي يوجهه الكاتب؛ فالمكان هو الهوية وهو الذات وبالتالي هو الوجود، فهو وحده يزرع الأُنس أو الوحدة والعزلة، وتأتي الهجرة أولى العلامات التي تؤطر للغربة وبالتالي تفتح الثقوب للاغتراب المكاني؛ فللمكان «الدور المميز في إحداث رؤية واعية لعذابات الروح ومعاناتها، وفجوة نفسية في كيان المغترب وصرخة مؤلمة، فطالما عبّر المكان عن العلاقة غير المنسجمة بينه وبين الذات المقيمة فيه، إذ نلمس خلف أستار المكان صيحات دفينة توحي بمعاناة التوتر والقلق والخوف على النفس»(الفلاحي، 2013، صفحة 85).

تستحضر الرواية مكان الغربة (فرنسا) بعيدا عن التوصيف المادي الملموس وإنما بوصفه مرآة مستوية تعكس أحوال الذات وتقلباتها مع مجرى الأحداث، وهو ما يؤكده البطل الذي يصف غرفته بالباردة المعلقة فوق جثث الموتى؛ فهو يسكن في سطح مؤسسة تغسيل الأموات، ولا يشاركه الأحياء في هذا الفضاء الصامت «حين دخلت سريري، كانت الشراشف باردة، أحسست وكأنني في كفن أو في كيس بلاستيكي كذلك الذي أضع فيه الجثث، سحبت السحاب عليّ، شددت الإزار حولي جيّدا، أحسست بأنني في قبر

أنزار ابن عمي الذي أسكن اِسمه وأعيش بوثائقه في هذه الحياة»(الزاوي، 2013، صفحة 156)، يعربد في داخله الألم والوحدة والتشتت، وهو يتأرجح بين غرفته وغرفة الجثث الباردة، «كنت خائفا من أن تتركني وتذهب، هذا السطح مخيف، وهذا الصمت من حولي يشبه صمت المقبرة»(الزاوي، 2013، صفحة 152).

وهنا يكتسب المكان تجانسه الدلالي مع الشخصية، فهو لا يبقى محايداً بل يكتسب الصورة النفسية لصاحبه فـ «تأثير المكان في نفسية الشخصيات غالبا ما يكون أعمق من تأثير الجسد، وذلك لما تمتاز به النفس الإنسانية من إحساس مرهف، فأكثر الأمور بساطة تطبع في النفس علامة يصعب محوها مع مرور الزمن»(شاهين، 2001، صفحة 118)

إن تيمة الغرفة وقرائنها المكانية (السرير– الشراشف– الطاولة– الخزانة) تمثل العالم الضيق "لأنزار" الذي حوّل جفاءها وجفافها إلى حُضن دافئ بجعلها مرتعا لكل أنواع الممارسات اللاأخلاقية.

وهنا يتحول المكان الغرفة إلى فضاء للمكبوت، وهو حال جارته شاهي التي تقاسمه نفس الفعل ورد الفعل.

إن تجليات الاغتراب المكاني في هذا النص السردي تحيل إلى شخصيتين متوازيتين: "أنزار" و"مازار" فهما أشبه بتوأم روحي، عاشا نفس المعاناة والمكابدات النفسية في بلاد الغربة، وهو قاسم مشترك بينهما، وهو ما يعززه قول الروائي في نهاية المتن السردي «أخذ وجهي بين راحتي كفيه وأخذ يقبّلني بحرارة، ومثله أخذت أقبله، وضع ظهره إلى ظهري، كان ينظر جهة الجنوب وأنا أنظر جهة الشمال، صمتنا قليلا، ثم ضحكنا فجأة ودفعة واحدة»(الزاوي، 2013، صفحة 230)، فالفضاء اللغوي المؤثث لهذه النهاية فيه تجانس وتلاحم وتكرار للفعل والقول والإحساس والشخصية.

4. خاتمة:

يحضر الموت في الرواية حضورا مكثفا، بكل أشكاله المادية والرمزية، فهو تيمة قارّة يمتص نزهة الخاطر ويجعلها في خانة قهر الخواطر، فبين موت الجسد (الجد– الجدّة– ميمون– فاطنة، جثث الموتى وغيرها....) وموت العقل (الكوابيس والجنون) مسافة، تعمّق هوّة الاغتراب الوجودي الذي يفلسف الموت

ويبحث له عن مبررات سببية، وعلامات مادية كاللون والرائحة والهيئة والشكل، وكلها مجتمعة تعجز عن فك حجب هذا الاغتراب.

يأتي الاغتراب الاجتماعي ربيب الواقع التاريخي والثقافي، ووليد الأسرة والمجتمع، وهو في هذا السياق المسؤول الأول عن الاغتراب الذي يولّد العنف والثورة والتمرد على عادات وتقاليد المجتمع، وبالتالي الخروج عن قماط المعقول إلى الممارسات الشاذة التي ينبذها الفرد والمجتمع، وفي هذا ما يستحضر شخصيات الرواية (هاجر– فاطنة– سليمان– أنزار...).

يعتمد الاغتراب النفسي على المواربة والتخفي واستنطاق كوامن الشخصيات واستفحال اللاوعي فيها، وهي موارده ومرتكزاته التي تفضح ذواتها في عدم المصالحة مع نفسها وغيرها، وخاصة في ظل غياب الوازع الديني والضابط الاجتماعي، وفي هذا المناخ تنتعش شخصيات الرواية في مماراساتها الشاذة التي تعكس عدم اتزانها على المستوى النفسي وبالتالي اغترابها.

يمثل المكان (الغرفة) في الرواية فضاء مغلقا، ودالا سرديا على الموت والمكابدات والحرمان، وهي في هذا السياق مطوّقة بالعزلة والوحدة واستيلاب الجسد وامتصاص نضارته بالممارسة المغيّبة لإنسانيته (المخذرات– المسكرات– الفاحشة).

وتبقى الغربة عتبة للولوج إلى الاغتراب بكل أنواعه، تحول المكان (الاغتراب فيه) من موصوف مادي ملموس إلى واصف للشخصية ينطبع المكان فيها بأحوالها النفسية، وهو ما يضفي على المكان وظيفة حكائية. كما يتناوب السرد بين شخصيتي "مازار" و"أنزار"، وهو ما يوحي بالكينونة الواحدة بينهما، التي تعزز عضدها النهاية نصيًّا.

6. قائمة المراجع:

المؤلفات:

1. أحلام الزعيم، (1981)، *أبو نواس بين العبث والاغتراب والتمرد*، دار العودة. بيروت، لبنان.
2. أحمد علي الفلاحي، (2013)، *الاغتراب في الشعر العربي في القرن السابع الهجري (دراسة نفسية / اجتماعية)*، دار غيداء، الفلوجة، العراق.

3. أسماء شاهين، (2001)، *جماليات المكان في روايات جبرا ابراهيم جبرا*، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان.
4. أمين الزاوي، (2013)، *نزهة الخاطر*، منشورات الاختلاف، الجزائر ، منشورات ضفاف. بيروت.
5. جعفر محمد راضي، (1999)، *الاغتراب في الشعر العراقي*. منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق
6. سالم بيطار، (2003)، *اغتراب الإنسان وحريته*، المؤسسة الحديثة للكتاب. طرابلس، لبنان.
7. عادل الألوسي. (2003). *الاغتراب والعبقرية* (الإصدار 1). دار الفكر العربي، القاهرة، مصر.
8. محمود رجب. (1993). *الاغتراب سيرة ومصطلح* (الإصدار 4). دار المعارف القاهرة.
9. والتر فينسكوف. (بلا تاريخ). *الاغتراب الوجودي، ترجمة: كامل يوسف حسن*، دار الآفاق الجديدة. بيروت، لبنان.

الدوريات:

. 1. علي وطفة. (أكتوبر- ديسمبر, 1998). المظاهر الاغترابية في الشخصية العربية. *مجلة عالم الفكر، 27*(02).
2. قيس النوري. (أفريل - يونيو, 1979). الاغتراب: اصطلاحا ومفهوما وواقعا. *مجلة عالم الفكر، 10*(01).
3. خليفة سحبان، (أيلول, 1974). فكرة الاغتراب في الفكر العربي. *مجلة أفكار*.